

الفصل الثانى

حسن العطار فى عصره

١ - موجز حياة

ولد الشيخ حسن العطار سنة ١١٨٠ هـ - سنة ١٧٦٦ م بالقاهرة ، وكان أهله من المغرب فانتقلوا إلى مصر . وكان أبوه عطاراً - ومن هنا جاء هذا اللقب . واسم والده الشيخ محمد كتن ، وكان لهذا الوالد مشاركة فى بعض العلوم كما يدل عليه قول المترجم له فى بعض كتبه : « ذاكرت بهذا الوالد رحمه الله » . وقد استخدم الوالد ولده فى شؤنه ، ولما رأى منه إقبالاً على العلم ساعده على تحصيله ، فكان يتردد على الأزهر ويحضر حلقات كبار مشايخه فى ذلك العصر ، ومنهم شيخاه محمد الأمير ومحمد الصبان .

ولما جاء الفرنسيون إلى مصر سنة ١٧٩٨ هرب إلى الصعيد^(١) خوفاً على نفسه من أذاهم ، ثم عاد إلى القاهرة بعد قليل فاتصل ببعض رجال الحملة من العلماء ، فأفاد منهم واطلع على كتبهم وآلاتهم وتجاربهم العلمية فكان ذلك بدء اتجاهه إلى تقدير العلوم الطبيعية والمناذاة بضرورتها . وقد اشتغل فى الوقت نفسه بتعليم اللغة العربية لبعض هؤلاء العلماء الفرنسيين . ويعترف العطار باتصاله بالفرنسيين فى مقامة له يتحدث فيها عن الكتب التى رآها عند القوم قائلاً : (وكلها فى العلوم الرياضية والأدبية . وأطلعونى على آلات فلكية وهندسية) . وقد اشتغل فى أثناء الحملة بالتدريس فى الأزهر ، فكان يقرأ على طلبته

(١) ذكر الزركلى فى الأعلام أنه ولد سنة ١١٩٠ هـ . والذى أثبتناه هو الصواب كما ذكره على مبارك فى الخطط التوفيقية . وذكر عمر الدسوقى صاحب كتاب « فى الأدب الحديث » أنه ولد سنة ١٨٦٦ م وهو خطأ مطبعى ظاهر .

(٢) ذكر عبد الرزاق البيطار فى « حلية » البشر أنه فر إلى دمياط ، وهو وهم والصحيح ما حققناه .

شرح الأزهرية للشيخ خالد في علم النحو ، ويشير إلى ذلك في مقدمة حاشيته على الأزهرية . ونراه بعد هذا - ولغير نسب معروف - يخرج من مصر فاراً إلى البلاد الزومية سنة ١٢١٧ هـ - سنة ١٨٠٢ م مستصحباً بعض كتبه ، ويشير هنا إلى ما دهم مصر (من حادثة الكفرة الفرنسيين) . ولعل الحوادث التي أعقبت خروج الفرنسيين من مصر قد أرغمته على الفرار من البلاد . وفي سنة ١٨١٠ م يدخل الشام قادماً من بلاد الروم ، فيلتبس منه أهل العلم في دمشق قراءة شرح الأزهرية ، فيفعل رجاء نفعهم ، ويكون من تلاميذه هناك الشيخ حسن البيطار الذي استجازه فأجازه . . . وأقام العطار بالشام خمس سنين ، ثم عاد إلى مصر سنة ١٨١٥ م بعد أن غاب عنها ثلاثة عشر عاماً قضاهما في التجوال والترحال . وكانت الأمور في مصر قد استقرت ، وصارت ولاية البلاد لمحمد علي فعاد صاحبنا إلى التدريس بالأزهر^(١) .

وفي سنة ١٢٤٦ هـ - سنة ١٨٣٠ م تولى الشيخ حسن العطار مشيخة الأزهر بعد الشيخ أحمد الدهموجي^(٢) ، فأداره على أحسن وجوه التدبير ، وظل في منصبه إلى أن توفي سنة ١٨٣٥ وهو شيخ للأزهر ، حيث عين خلفاً له في مشيخة الأزهر الشيخ حسن القويسني المكفوف البصر ، وصاحب التأليف الفقهية الكثيرة . ومن لطائف الموافقات أن يتعاقب على مشيخة الأزهر عالمان اسم كل منهما « حسن » .

وقد استغل أحد ظرفاء ذلك الزمان من الشعراء هذه اللطيفة فقال يمدح الاثنين ويعترف بفضلهما ويجمع بين التعزية والتهنئة :

(١) توهم عبارة جرجي زيدان وعمر الدسوقي أن العطار بدأ يتولى التدريس في الأزهر بعد عودته من الشام سنة ١٨١٥ ، والصواب أنه درس في الأزهر في أثناء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ كما صرح هو بعبارة في حاشيته على الشيخ خالد . . .

(٢) ذكر الأب لويس شيخو أن العطار تولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ محمد العروسي ، وهو خطأ ، والصواب ما حققناه ، وقد تابعه على هذا الخطأ الأستاذ عمر الدسوقي الذي نقل عن طرازي وشيخو .

ولئن مضى (حسن) العلوم لربه فلقد أتى (حسن) وأحسن من حسن أنت المقدم رتبة ورياسة وديانة من ذا الذى ساواك؟ من؟ وقد عُرف الشيخ حسن العطار بمؤلفاته الكثيرة، وخاصة حواشيه على كتب النحو والتوحيد والأصول والبلاغة. كما عرف بأسلوبه الأدبي وعبارته الإنشائية الأنيقة التى كانت تجرى على طريقة الزخرف والمحسنات. وله أشعار رقيقة سنعرض لها فى فصل خاص. وبلغ من اهتمامه بالشعر أنه جمع ديوان ابن سهل الأندلسى وبوبه.

أما ميله إلى العلوم الطبيعية والرياضية والفلك والطب فبدل عليه كتبه ورسائله فى كيفية العمل بالأسطرلاب، والرعين المتنظر والحجيب، والطب والتشريح، وأشكال التأسيس فى علم الهندسة، هذا إلى ما كان من إتقانه رسم المزاويل الليلية والنهارية بيديه.

وقد امتاز حسن العطار بقراءته الواسعة العميقة للكتب العربية والمعرية فى زمانه. ولم يختص بعلم معين، أو بفن بعينه من الفنون، ولكنه كان حريصاً على الإفادة من كل علم. وكان يطرز الكتب التى يقرؤها بهواه وشه وتعليقاته، ويقول فى ذلك تلميذه الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى: (كان له مشاركة فى كثير من العلوم، حتى فى العلوم الجغرافية، فقد وجدت بخطه هوامش جلييلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبى الفداء سلطان حماة المشهور أيضاً بالملك المؤيد. وللشيخ المذكور هوامش أيضاً وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها. وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها، وكان له ولوع شديد بمسائر المعارف البشرية. (١).

وتوفى العطار سنة ١٢٥٠ هـ — سنة ١٨٣٥ (٢).

(١) مباحج الأبواب المصرية: لرفاعة الطهطاوى: مطلب أنه ينبغى للعلماء الشرعيين أن يتشبهوا أيضاً بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكيمية العملية. ص ٣٧٥.
(٢) ذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار فى حلية البشر أنه توفى سنة ١٢٣٥ هجرية، وهو خطأ خلط فيه صاحبه بين رقى الآحاد والعشرات فى التاريخين الهجرى والميلادى.

٢ - شيوخ وأساتذة

يذكر الأب لويس شيخو اليسوعي ، والكونت فيليب طرازي اثنين من رجال الأزهر على أنهما بعض كبار المشايخ الذين أخذ حسن العطار العلم عنهم ، وهما الشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد الصبان . والواقع أن العطار نفسه لم يحوجنا إلى أن نتساءل عن أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم ، ففي إجازته العلمية التي كتبها للشيخ حسن البيطار الدمشقي في أثناء إقامته بالشام يذكر لنا قائمة الشيوخ الذين « اقتبس أنوارهم ، واغتم أسرارهم » . وندعه يقول بعبارة : (منهم) والله الحمد عدد كثير ، كل له قدر خطير . فمنهم العلامة الشيخ محمد الصبان ، والفهامة الشيخ أحمد بن يونس ، والشيخ عبد الرحمن المغربي ، والشيخ أحمد السجاعي ، والشيخ أحمد العروسي ، والشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ محمد الشنواني ، والشيخ عبد الله سويدان وغير هؤلاء من السادة الشافعية . وأما من السادة المالكية فالإمام الشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد عرفة الدسوقي ، والشيخ أحمد برغوث ، والشيخ البيلى وغيرهم ^(١) . ولتقف لحظة مع كل واحد من هؤلاء الذين كانوا شيوخ زمانهم في القرن الثاني عشر . فالصبان هو صاحب الشروح والخواشي الكثيرة : وكان لازماً لاجبرتي الوالد . ولازله الإملاق أول أمره ، ثم أقبلت عليه الدنيا وازداد وجاهة وشهرة وخاصة بعد اتصاله بالوالى إسماعيل كتحدا . وتوفى سنة ١٧٩٢ م . ويشير إليه العطار دائماً في حاشيته على شرح الأزهرية بقوله : شيخنا .

والشيخ أحمد بن يونس كان من المشتغلين بالنحو والأصول والجدل ، وله حواش ورسائل كثيرة : وكان تلميذاً لاجبرتي الوالد مدة ، وتوفى سنة ١٧٩٤ م . والشيخ أحمد السجاعي كان من فقهاء الشافعية بمصر : وله شروح وحواش ومتون ورسائل في الفقه والأدب والتصوف والمنطق . وقد اشتهر بحاشيته على شرح القطر لابن هشام النحوي . وتوفى سنة ١٧٨٣ م . والشيخ أحمد العروسي كان

شيخاً للأزهر بعد وفاة الشيخ أحمد الدمنهوري ، وقد تتلمذ عليه الجبرقي المؤرخ وترجم له ، ولما توفي سنة ١٧٩٣ رثاه الشاعر السيد إسماعيل الخشاب بقصيدة مطلعها :

تغير وجه الدهر وازور جاذبه وجاءت بأشراط المعاد عجائبه
وكدر صفو العيش وقع خطوبه وقد كان ورداً صافياتٍ مشاربه

وقد اشتهر العروسي بحاشيته على المملو على متن السمرقندية في الاستعارات .
والشيخ عبد الله الشرقاوي كان فقيهاً نحوياً محدثاً مؤرخاً ، تخرج في الأزهر وتولى مشيخته لبضعة عشر عاماً وكانت الحملة الفرنسية في خلال عهده بالمشيخة ، وكان أحد العلماء العشرة الذين كوّن منهم بونابرت ديوان القاهرة ، وقد اشترك في البيان الذي أكرهوا على توقيعه للتحذير من معارضة سلطات الاحتلال الفرنسي . وقد اشتهر بكتابه « تحفة الناظرين » ، فيمن ولي مصر من السلاطين » .
ويجيء ترتيبه الحادى عشر في شيوخ الأزهر منذ إنشاء هذه الوظيفة . والشيخ محمد الشنوائى كان من علماء الأزهر المشتغلين بالفقه والحديث والنحو ، وتولى مشيخة الأزهر بعد وفاة الشرقاوي مباشرة ، وظل فيها ست سنوات ، وله حواش في الحديث والتوحيد ، وتوفى سنة ١٨١٨ م . والشيخ عبد الله سويدان كان من علماء الأزهر المشاركين في الحديث والوعظ والأصول ، واشتهر بسويدان ، وكان كفيف البصر ، وله مؤلفات في مصطلح الحديث وتوفى سنة ١٨١٩ م والشيخ محمد الأمير كان من فقهاء المالكية الكبار وعالماً بالعربية . وهو من بلدة سنبل من صعيد مصر ، ولهذا سمي بالسنبولى ، واشتهر بالأمير لأن جده كانت له إمرة في الصعيد ، وهو كالشيخ حسن العطار من حيث أصوله المغربية . وأكثر كتبه حواش وشروح وتقارير . واشتهر بحاشيته على كتاب المغنى لابن هشام ، وبشرحه المختصر خليل في الفقه المالكي ، وكان شيخاً مبعجلاً ممدحاً . وللشاعر إسماعيل الخشاب فيه مدائح متنوعة مذكورة في ديوانه المطبوع بالجواثب ، وتوفى الأمير سنة ١٨١٧ م . والشيخ محمد عرفة الدسوقي كان من علماء المالكية ،

وله مشاركات في الفقه والكلام والبلاغة والنحو والهندسة والهيئة والتوقيت ، واشتهر بحاشيته على المغنى ، وحاشيته على شرح السنوسى على مقدمة أم البراهين في العقائد ، وحاشيته على شرح البردة لجلال الدين المحلى . وتوفى سنة ١٨١٥ م .
والشيخ أحمد برغوث كان من علماء المالكية كذلك ، وهو من مواليد قرية اليهودية بالبحيرة ، وكان فيه انغزال عن الناس ، وانكسار وتواضع . ويذكر المؤرخ عبد الرزاق البيطار أنه (لم يتزى بزى الفقهاء ، ولم يظهر بمظاهر العلماء ويمشى في حوائجه لنفسه . . .) وتوفى سنة ١٨٠٩ م . والشيخ أحمد البيلي كان من علماء المالكية أيضاً ، وقد ترجم له الجبرتى ، وعلى مبارك ، والبيطار ، وعمر رضا كحالة ، وهو من بلدة بنى عدى من صعيد مصر . وقد اشتهر بحافظة قوية غريبة ، فكان يملئ على الطلاب ما ذكره أصحاب المتون والحواشى دون رجوع إلى الكتب وتوفى سنة ١٨٠٠ م .

هؤلاء هم شيوخ الشيخ حسن العطار وأساتذته . وهم كما ترى يمثلون ثقافة الأزهر واتجاهاته العلمية والفكرية في ذلك العصر . وإن كان المترجم له قد رأى يبعد نظره ، وسعة أفقه ، وشدة تطلعاته أن يتجاوز الدائرة التي كانت تحيط بعلوم الأزهر ومؤلفات رجاله إلى دائرة أوسع تلائم العصر ، وتحقق تسخير الإنسان لقوى الطبيعة في هذا الكون الرحيب . . .

٣ - تلاميذ نجباء

إذا كان الشيخ حسن العطار قد صنّع على يد طائفة كريمة من علماء وقته ومشهورى عصره ، فقبس منهم ألوان المعارف التي كانت سائدة في زمانه ، فإن الله قد جعل منه شيخاً مباركاً وأستاذاً كريماً تخرج بعلمه وأدبه جماعة من كبار الرجال في عصره . ويكفيه فخراً أن يكون الشيخ رفاعة الطهطاوى رائد الفكر وإمام النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر أحد تلاميذه النجباء . ويذكر مؤرخنا عبد الرحمن الراجعى أن الشيخ رفاعة الطهطاوى أخذ العلم عن الشيخ حسن

العطار ، فأحبه الشيخ لما آتته فيه من الذكاء والانكباب على العلم ، وقربه إليه ، وحفه برعايته . وكان التلميذ رفاة يتردد على شيخه كثيراً في بيته ، ويأخذ عنه العلم والأدب والجغرافية والتاريخ . ولما كان العطار ميلاً بطبعه إلى العلوم العصرية ولا يرى الانحصار في دائرة كتب الشرع فحسب ، فقد أودع هذا الميل في نفس تلميذه رفاة الطهطاوى ، مما أهله بعد ذلك ليكون إماماً للبعثة العلمية في باريس ، ومما فتح ذهنه إلى البحث وسلامة التفكير والإسهام في نقل العلوم عن الغربيين حتى يفيد منها أهل وطنه . وهنا يظهر فضل العطار على رفاة الطهطاوى ، فهو أول من وجهه إلى الاعتراف من موارد العلم والأدب ، وهو أول من قوّم عبارته وحررها من كثير من قيود عصره ، وهو أول من دله على قيمة العلوم العملية الطبيعية وضرورتها بما لا يقل عن أهمية العلوم الشرعية . ولقد كان رفاة أثيراً عند شيخه حسن العطار ، وطالما فتح له الشيخ بيته وصدره وأذنه ليسمعه من رائق الشعر وفائق النثر (ما يستدل به شيخه على أنه وحيد عصره ، وفريد مصره ، وأنه صاحب القريحة الوقادة ، والفكرة النقادة) . وما ضن الشيخ على تلميذه بعطف ولا رعاية ولا توجيه ، فهو الذى اختاره عند محمد على ليكون إماماً لبعثة باريس ، وهو الذى أوصاه بتأليف كتاب في هذه الرحلة ، وهو الذى فتح عينيه على القيم الكبرى للحياة والعلم الحقيقى لا علم الحواشى والشروح وندع المؤرخ صالح مجدى يحدثنا في كتابه « حلية الزمن » عن هذه التلمذة قائلاً : (وأما تلمذته - يعنى رفاة الطهطاوى - للشيخ حسن العطار المتوفى في اثنين وعشرين من شهر ذى القعدة سنة خمسين ومائتين وألف^(١)) وقد آلت مشيخة الأزهر إليه قبل العلامة الشيخ حسن القويسنى ، فكانت مستمرة من مبدأ دخول صاحب الترجمة إلى خروجه من الأزهر بجمعية من أرسلوا من مصر إلى باريس لاكتساب العلوم الأجنبية ، حيث انتخبه لذلك العلامة المشار إليه ، وأوصاه بعمل رحلته الباريسية الآتى ذكرها عند بعض مؤلفاته وتعليقاته .

(١) يحقق لنا هذا النص سنة وفاة الشيخ حسن العطار ، ويصحح ما ذكره المرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار خطأ في حلية البشر .

وكان للمرحوم فضيلة الإمتياز عند الأستاذ العطار عن سائر طلبته ، وكثيراً ما كان يلازم بيت الأستاذ المذكور في غير الدروس ليتلقى عنه علوماً أخرى ، كالتاريخ والجغرافية والأدب (١) .

وثاني تلاميذ الشيخ حسن العطار هو الشيخ حسن قويدر ، وهو مغربي الأصل كأستاذه ، ولكن أسرته نزلت إلى فلسطين وأقامت بها ، وولد هو بالقاهرة . وكان مشهوراً بالعلم والأدب ، ولكنه جمع بين ذلك وبين أسباب الرزق فكان يتعاطى التجارة بين مصر والشام ، ويملاً أوقات فراغه بالتأليف والمذاكرة في العلوم . ولقد بلغ من إعجابه بشيخه العطار أنه ألف كتاباً في الإنشاء والمراسلات عنوانه « زهر النبات » على غرار الكتاب الذي ألفه حسن العطار في الإنشاء . كما أنه شرح منظومة حسن العطار في النحو شرحاً مطولاً ، ولم يكتفِ التلميذ بشرح منظومة أستاذه بل قرظها شعراً يقول فيه :

منظومة الفاضل العطار قد عبقت منها القلوب برياً نكهة عطره
لو لم تكن روضة في النحو يانعة لما جنى الفكر منها هذه الثمرة
في ظلمة الجهل لو أبدت محاسنها والليل داج أارانا وجهها قمره
قالوا جواهر لفظ . قلت : لا عجب بحر البلاغة قد أدى (٢) لنا درره
ومن مؤلفاته : نيل الأرب في مثلثات العرب ، وشرح منظومة العطار في النحو ، وزهر النبات ، وشرح على مزدوجته البديعية ، ورسالة الأغلال والسلاسل ، في مجنون اسمه عاقل (٣) .

وثالث تلاميذ حسن العطار هو الشيخ محمد عياد الطنطاوى . ونكتفى هنا بما ذكره المستشرق الروسي الكبير أغناطيوس كراتشكوفسكى في كتابه « حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى » قائلاً : (كذلك كان من معلمى الطنطاوى ،

(١) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن - لصالح مجلى ص ٢٥ .

(٢) الآداب العربية للويس شيخو - ج ١ ص ٥٣ ، وحلية البشر للطباطبائي ج ١ ص ٥٠٥ .

(٣) أعيان البيان لحسن السنودى ص ١٩ .

حسن العطار ١٧٦٦ هـ - ١٨٣٤ م^(١) . ولم يكن الشيخ حسن العطار عالماً فحسب ، بل وشاعراً أيضاً ، وقد رأى من المستطاع أن يتقرب من الفرنسيين ليتعرف إلى تفوق ثقافتهم ، ولم يرفض في أيام شيخوخته أن يكون محرراً لأول جريدة عربية مصرية أسسها محمد علي ، وفي السنوات الأخيرة من عمره صارت إليه مشيخة الأزهر^(٢) .

أما رابع تلاميذ حسن العطار فهو الشاعر المصري الشيخ محمد شهاب الدين ، من مواليد مكة ، ومن المقيمين بمصر . ويذكر جرجي زيدان^(٣) أنه تفقه في الأزهر على الشيخين : العروسي وحسن العطار ، كما يذكر ذلك الأب لويس شيخو اليسوعي . ويزيد شيخو على هذا قائلاً : إنه لما أنشأ الشيخ حسن أول جريدة (كذا) طبعت في الشرق وهي الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ اتخذ شهاب الدين كمساعد له في إنشائها (كذا) ثم خلفه في إدارتها سنة ١٢٥٢ - سنة ١٨٣٦ . وهذا كلام يحتاج إلى الوقوف أمامه ، فإن مسألة إنشاء حسن العطار للوقائع وتحريره فيها لا تزال موضع خلاف بين المحققين وسنعالجها في فصل خاص . وقد ترك لنا الشاعر محمد شهاب الدين من مؤلفاته « سفينة الملك ، ونفيسة الفلك » وفيها نماذج كثيرة من الموالى والموشحات والأزجال والأهازيج التي يتغنى بها ، كما ترك لنا « ديوان شهاب الدين » وكان لنا حظ دراسته وتحليله في كتابنا « تراجم عربية » .

٤ - بين التدريس والمشيخة

جمع الشيخ حسن العطار في حياته المباركة بين التدريس في الأزهر أول عمره ، ومشيخة الجامع الأزهر في ختام حياته . وكثير من علماء الأزهر المشهورين

(١) هذا التاريخ الميلادي يحتاج إلى تصحيح ، وصوابه سنة ١٨٣٥ كما ذكرنا قبلاً .

(٢) انظر كتاب « حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى » من مراجعتنا وتحقيقنا وتعليقنا ، وهو من منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢١٣ .

لم يجمعوا بين الاثنين ، كالشيخ الأمير ، والصبان ، وعلى الصعدي ، وأحمد السجاعي ، ومحمد عرفة الدسوقي وغيرهم .

وتوهم عبارة جرجي زيدان ، والأب لويس شيخو ، والكونت فيليب طرازي أن العطار ابتداء التدريس في الأزهر بعد عودته من رحلته الطويلة إلى بلاد الروم والشام سنة ١٨١٥ م ، وقد نقل الأستاذ عمر الدسوقي عنهم هذه العبارة بما تحمله من الوهم والإيهام دون تمحيص^(١) . والحق أنها مزلفة كان يجب التفتن إليها ! فإن العطار نفسه يصرح في مقدمة كتابه : « حاشية على شرح الأزهرية في علم النحو للشيخ خالد » بأنه كان يدرس هذا الكتاب ويقرؤه على طلبته بالأزهر في خلال الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٩ ، كما أن العطار في إجازته التي كتبها للشيخ حسن البيطار العالم الدمشقي ذكر في ختامها أنه (خادم العلم بالأزهر الشريف) . وكان ذلك بالطبع في أوائل سنة ١٨١٠ م — أي قبل عودته إلى مصر بخمس سنوات .

وكانت حلقة الشيخ العطار بالأزهر تغص بالطلاب ، فقد كان العلماء — كما ذكره مؤرخ معاصر — يتركون حلقات غيره ، ويتكاثرون على حلقاته يستمعون^(٢) . وقد نقل هذا المؤرخ هذه الحقيقة عن كتاب الخطط التوفيقية لعلي مبارك حيث يقول : (وقد مضت مدة على تفسير البيضاوي لا يقرؤه أحد ، فحضره أكابر المشايخ . فكانوا إذا جلس للدرس تركوا حلقاتهم وقاموا إلى درسه)^(٣) .

ولا شك أن تحرر الشيخ حسن العطار الفكري وبعده من الجحود ودعوته الجديدة إلى الأخذ بالعلوم الحديثة مع الاهتمام بالعلوم القديمة قد جذب إليه الطلاب من كل فج ، وهدهم إلى مجاسه في أثناء تدريسه بالأزهر . ويستوى في ذلك مقامه بمصر أم بالخارج . ففي مقامه بدمشق لفت إليه أنظار طلبة العلم

(١) انظر « في الأدب الحديث » لعمر الدسوقي ج ١ ص ٤٦ ، وزيدان ج ٤ ص ٢٣٢ ، وتاريخ الصحافة العربية لطرازي ج ١ ص ١٢٩ وتاريخ الآداب العربية لشيخو ج ١ ص ٥٢ .

(٢) مصر في القرن الثامن عشر — لمحمد الشقراوى — ج ١ ص ٥٠ .

(٣) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٩ .

هناك (فتلقاء أهلها بما لاق ، وعقدوا على تفوقه وتفرد به بالفضائل كلمة الاتفاق) كما يقول مترجم سيرته عبد الرزاق البيطار .

ومن عجب أن النقص الذي كان يشكو منه العطار في برامج الأزهر وكتبه واتجاهاته العلمية قبل أن تؤول إليه مشيخة الأزهر ، لم يتناوله بالإصلاح والمعالجة بعد أن آلت إليه المشيخة . وقد كان يُرجى منه — بعد تنبهه لحالة الأزهر وهو مدرس فيه — أن يعمل شيئاً لإصلاحه ، ولكنه لم يصنع في هذا السبيل شيئاً . ولعله جرى اتجاه محمد علي في إغفال شأن الأزهر ، فقد رأى هذا الوالى — بما أوتيته من مكر عميق — أن يترك الأزهر على حاله ونظامه القديم ، مخافة أن يثير سخط العلماء إذا حاول إصلاحه وجعله يساير حركة التقدم العلمى الحديث . ولا نقول — كما قال عبد الرحمن الرافعى — أنه لم يجد بين العلماء من يظلم بهذه المهمة ويعهد إليه بها (١) ، فقد كان من الممكن أن يقوم بهذا الإصلاح الشيخ حسن العطار ، وهو قادر عليه . وكان من الممكن أن يقوم به الشيخ رفاعه الطهطاوى ، ولكن الوالى رأى أن الوقت لم يكن مناسباً بعد للإصلاح ، وأن النفوس لم تكن مهيأة له .

وقد تولى العطار مشيخة الأزهر سنة ١٨٣٠ بعد ما أوفت سنة على الخامسة والستين ، فجاء بعد الشيخ أحمد بن على الدمهوجى الشافعى — لا بعد الشيخ أحمد (٢) العروسى كما ذكر خطأ بعض المؤرخين ومن تابعهم من المؤلفين . ومن هنا لا يعتد بما جاء في كتب « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » و « تاريخ الصحافة العربية » و « فى الأدب الحديث » فإنها تنقل الخطأ عن بعضها بعضاً .

ويلوم المرحوم العالم المحقق الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ، الشيخ حسن العطار على إهماله إصلاح الأزهر واكتفائه (بذلك الصوت الخافت الذى أرسله فى مواضع يصعب العثور عليها من حاشيته على شرح جمع الجوامع ، بل كان

(١) عصر محمد على ج ٣ ص ٦٠٨ .

(٢) ذكر الأب شيخو أن اسمه محمد العروسى ، والصواب أحمد — ص ٥٢ .

يجب عليه أن يجهر بذلك الصوت بين جنبات الأزهر لينبه أهله من غفلتهم ، ويوقظهم من رقدهم^(١) كما يتهمه بأنه كان ضعيف الروح (فلو رزق الروح القوية لأدخل الإصلاح في الأزهر بالقوة ، كما أدخل محمد على الإصلاح في مصر بالقوة)^(٢) ونسى الأستاذ الصعيدى أن محمد على لم يكن في نيته إصلاح الأزهر لأسباب ليس هنا مجال مناقشتها في مقام ضيق . . .

٥ - بين العطار والشاعر بطرس كرامة

تصادفنا في الجزء الرابع من « الخطط التوفيقية » عبارة نقلها المؤرخ على مبارك عن الشيخ حسن العطار يقول فيها المترجم له بعبارة : (قدم علينا بمصر عام سبعة وثلاثين بعد المائتين والألف ، كبير رجال الدروز لقيام أهل الجبال عليه ، ملتجئاً بوزيرها محمد على ، وقدم بصحبته بطرس النصرانى ، فاجتمع بالفقير - يعنى العطار نفسه - مراراً ، ورأيت أنه أدباً جماً ، ومحاضرة ومعرفة بالتواريخ والأيام والأنساب والنحو وغير ذلك ، وكان يكتب الخط الحسن ، وامتدحني بقصيدة منها :

أما الذكاء فإنه أذكى وأبرع من إياسه
أضحى البديع رفيقه لما تفرد في جناسه
في أى فن شئت فكن أنه باني أساسه

فن هو كبير الدروز هذا الذى ثار عليه أهل الجبال والتجأ إلى مصر محتجاً بمحمد على ؟ ومن هو بطرس النصرانى هذا الذى جاء بصحبته ؟ والذى كان جم الأدب : حسن المحاضرة ، عارفاً بالتاريخ والأيام والأنساب والنحو ، والذى كان حسن الخط ، حاضر الشعر إلى حد أنه مدح الشيخ حسن العطار بقصيدة

٢٧
روى لنا المترجم ثلاثة من أبياتها ؟

الحق أن هذا الخبر قد يقبله القارئ العادي بدون أن يلفت نظره فيه شيء ، ولكن القارئ المتعمق المتفطن للأحداث وتواريخ الرجال يقف عنده وقفات طويلة . . . فكبير الدروز هذا لم يكن - كما روى ، وهما ، على مبارك عن العطار - رجلاً من الدروز ولا كبيرهم ! وإنما هو الأمير بشير الشهابي ، الذي كان مسيحياً - ولم يكن درزياً فأعلن إسلامه . أما الشيخ بشير جنبلاط فكان كبير الدروز : وليس هو من بيت الأمراء الشهابيين . ولكن اسم « بشير » اختلط على الراوي والناقل . فبشير الشهابي المسيحي الذي اعتنق الإسلام والذي جاء إلى مصر وفي صحبته « بطرس النصراني » هو غير الشيخ بشير جنبلاط كبير الدروز ، وهو لم ينجح إلى مصر : ولم يكن له شأن مع محمد علي . والحق أن أهل الجبال - يعني جبال لبنان - قد ثاروا على الأمير بشير الشهابي لأسباب سياسية لا محل لذكرها هنا ، وكانت أسرة جنبلاط الدرزية تؤيد الأمير بشير الشهابي وتناصره^(١) ليحفظوا بهذا نفوذهم وسطوتهم أمام الأسر الدرزية الأخرى ، ومن هنا جاءت العداوة بين الأمير بشير وبين الدروز . ولم يخضع بعض أهل لبنان لسلطان الأمير بشير الشهابي وأبوا أن يدفعوا له المال المفروض عليهم ، فقامت بينه وبينهم حروب ودسائس انتهت بمجيئه إلى مصر سنة ١٨٢١ ملتجئاً إلى محمد علي ، ومتفهماً معه على بعض الأوضاع في الشام ، وفي صحبته شاعره الأديب اللبناني الكبير بطرس كرامة صاحب ديوان « سجع الحمامة » وأقرب المقربين إلى الأمير بشير . هذا هو « كبير الدروز » الذي أشار إليه حسن العطار في كلامه عن نفسه ، وهذا هو « بطرس النصراني » الذي كان في صحبته . . .

وقد روى الكونت طرازي ، والأب لويس شيخو البيتين اللذين قالهما الشاعر اللبناني بطرس كرامة في مدح الشيخ حسن العطار حين قابله بمصر لأول مرة ، وهما :

قد كنت أسمع عنكم كل نادرة حتى رأيتك يامسؤولي وياأرربي^(١)
والله ما سمعت أذني بما نظرت لديك عيناى من فضل ومن أدب
على أن الأبيات الثلاثة التي رواها حسن العطار نفسه هي من قصيدة طويلة
للشاعر بطرس كرامة في مدحه مطلعها :

وإني يطوف بشمس كاسه قمر تلثم في نواسه^(٢)
طاب الصبوح فيخذ على ورد بوجنته وآمه ...
وتبلغ أبياتها تسعة وعشرين بيتاً .

والحق أن الشاعر كرامة لم يمدح حسن العطار وحده في مصر ، بل مدح
العالم الكبير الشيخ المهدي ، ولكنه خلط في مدحه بين العلماء والقيان ، فمدح
بمصر مغنية في عصر محمد علي كانت تدعى « أم رضوان » ، فقال وأبدع :
رعى الله مصرأ إن مصرأ لجنه يزول بها من صاحب الهم همه
ففي جنه الفردوس رضوان وحده وفي مصر رضوان كذاك وآمه !
والحق أن « كرامة » أعجب بمصر كلها ما بين علمائها وقيانها ، ورجالها
ونسائها ، فقال يمدحها بقصيدة مطلعها :

تجلت لدينا في محاسنها مصر فراق لنا وجه المسرة والبشر
ولقد اختلط الأمر على مؤلف كتاب « مصر في القرن الثامن عشر » فذكر
أن الذى قدم إلى مصر في أيام محمد علي وتعرف إليه حسن العطار (هو رجل
من الدروز اسمه بطرس)^(٣) . ولن نضيف هنا تصحيحاً جديداً ، فبطرس

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص ١٣٠ . و « تاريخ الآداب العربية » لشيخو ص ٥٢ .
وديوان كرامة ص ٢٩١ .

(٢) ديوان مجمع الحماة ص ٣٠٠ .

(٣) صفحة ٥٠ من الجزء الأول من كتاب « مصر في القرن الثامن عشر » للأستاذ المؤرخ
حمود الشراوى . وهو كتاب نفيس في موضوعه .

كرامة لبناني مسيحي كان شاعر الأمير بشير الشهابي ، وما كان درزياً في يوم من أيام حياته .

٦ - التحرير في الوقائع المصرية

في بضعة من كتب تاريخ الأدب والنقد والتراجم التي ترجمت للشيخ حسن العطار نجد أنها تكاد تجمع على أن هذا الموجه الأول لحركة الأخذ بالعلوم الحديثة قد اشتغل بالتحرير في صحيفة الوقائع المصرية التي أنشأها محمد علي سنة ١٨٢٨ هـ وجعلها لسان حال الحكومة ، والجريدة الرسمية للدولة . فرى الأب لويس شيخو يذكر أنه (لما أنشأ الشيخ حسن العطار أول جريدة طبعت في الشرق وهي الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ اتخذ كساعداً له في إنشائها شهاب الدين المذكور - يعنى الشاعر شهاب الدين^(١)) . ونرى مؤلف تاريخ الصحافة العربية يذكر في الفصل الذي كتبه عن الوقائع المصرية أنه قد تولى تحريرها بعد رفاة الطهطاوى كثير من أرباب الشهرة الواسعة في العلم ، من أمثال فارس الشدياق ، وحسن العطار^(٢) . وعن هذين المصدرين نقل المؤرخ جرجى زيدان^(٣) . وظل الخبر ينقل من مصدر إلى مصدر حتى رواه الأساتذة أحمد الإسكندري وأحمد أمين وزملاؤهما في كتاب « المفصل » على الصورة الآتية : (وعاد حسن العطار إلى مصر فولى تحرير الوقائع المصرية)^(٤) . وكرر هؤلاء الأساتذة هذا الخبر في كتاب « المنتخب من أدب العرب » الذي كلفوا جمعه وشرحه من قبل وزارة التربية والتعليم . وفي معجم « المنجد » للأب لويس معلوف اليسوعى أن العطار هو محرر جريدة الوقائع المصرية لأمر محمد علي . ويذكر صاحب كتاب « في الأدب الحديث^(٥) » أن العطار عهد إليه بتحرير الوقائع المصرية بعد أوبته

(١) الآداب العربية ج ١ ص ٨٤ .

(٢) تاريخ الصحافة العربية لطرازي ج ١ - ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية - ج ٤ ص ٥٢ .

(٤) المفصل ص ٣٣٥ . (٥) هو الأستاذ عمر الدسوقي

إلى مصر (١) . ويردد الأستاذ محمود الشرقاوى هذه الرواية قائلاً " إن محمد على اختار الشيخ حسن العطار محرراً للوقائع المصرية أول صدورها (٢) .

ونجد من أصحاب الموسوعات في تراجم الرجال أن الأستاذ خير الدين الزركلى (٣) يتفق مع الأب لويس شيخو في أن حسن العطار تولى إنشاء جريدة الوقائع المصرية في بدء صدورها ، فهما لا يكتفیان بأن ينسبا إليه القيام بتحرير الوقائع بل ينسبا إليه القيام بإنشائها . . . على حين أن الأستاذ عمر رضا كحالة — مؤلف موسوعة معجم المؤلفين — لا يتعرض لحكاية الوقائع المصرية بنفى أو تأكيد بل يسقطها من حساب السيرة . . .

أما الأستاذ سامى بدرأوى فله دراسة جيدة عن الشيخ حسن العطار في مجلة « المجلة » ، وفيها يكرر حكاية تحرير العطار للوقائع المصرية في ثلاثة مواضع من مقاله : ويزيد أن سر اختياره أول محرر للوقائع المصرية يكمن وراء جمال أسلوبه (٤) . ويتقدم كاتب هذا المقال خطوة في الإثبات فيشير إلى بعض الإشارة الدالة على موقف العطار السياسى في عهد محمد على قائلاً : (أما الإشارة الثانية إلى موقف العطار السياسى في عهد محمد على فنجدها في الوقائع ، في الفترة التى ولى فيها العطار تحرير القسم العربى منها ١٨٢٨ — ١٨٣٠ م . وخلاصة هذه الإشارة أن أحد محررى الوقائع واسمه عزيز أفندى كان يحرص على أن يعرض الأخبار التى ترد إليه من محمد على عرضاً موجهاً : أى أنه كان يعاق عليها برأيه الشخصى ، ولم يرض ذلك محمداً علياً ، فلفت نظر عزيز أفندى مرة ومرة . وفى الثالثة نحاذ نهائياً عن الوقائع . وبعد ذلك بقليل نجد رئيس التحرير نفسه يعتذر عن كتابته بعض أشياء لم يكن مطلعاً عليها فوقع بها الخطأ ، وأن سعادته — يعنى محمد على — أمر بأنه لا يكتب شيئاً إلا بعد الاطلاع على حقيقته ليكون

(١) في الأدب الحديث : لعمرالدسوق ص ٤٦ .

(٢) مصر في القرن الثامن عشر — ج ١ ص ٥٠ .

(٣) انظر معجمه الكبير (الأعلام) ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) مجلة المجلة عدد مارس سنة ١٩٦٥ ص ٣١ — ٣٣ — ٣٥ .

خالياً من السهو والخطأ . ويشكر المحرر محمداً علياً لتجاوزه عن هذا الأمر ، بل واختياره المحرر عضواً في المجلس العالي من غير استحقاق (١) .

هذه قصة اشتراك الشيخ حسن العطار في تحرير الوقائع المصرية وفي إنشائها ، ولكننا نجد مؤرخاً حديثاً للصحافة ، بل مؤرخاً للوقائع المصرية نفسها ينكر مشاركة العطار في تحريرها ؛ ويقول بنص عبارته : (وعندى من الأسباب ما يجعلني أستبعد إلقاء أمر التحرير العربي في جريدة الوقائع إلى الشيخ حسن العطار . فقد أنكرته الوثائق الرسمية إنكاراً تاماً ، بينما حرصت على ذكر تفاصيل إدارة الوقائع وتحريرها . وهي تفاصيل دون قدر الرجل ومكانته كمحرر اللغة العربية في الصحيفة الرسمية ، وكان أحق بالذكر منها ، والشيخ حسن العطار شاعر ناثر لا ينافسه في ميدان الإنشاء والتحرير منافس . . . وما أثر عن أسلوب العطار لا يتفق مطلقاً مع تحرير الوقائع التي هوى أسلوبها وكاد يصل في معظم أعدادها إلى اللغة الدارجة) (٢) .

ولابد في ختام هذا الفصل من أن نصصح وهمماً كبيراً وقع في كتاب « أدب المقالة الصحفية في مصر » وفي الجزء الأول منه . فقد ذكر مؤلفه الفاضل أنه كان يشرف على تحرير القسم العربي بالوقائع رجالان هم : السيد جمال الدين الأفغانى ، ومحمد بن إسماعيل ، والشيخ عبد الرحمن الصفتى ! ! وواضح أن الكلام اضطراباً ساقه هذا المساق ، الذى لا يعز كشفه على فطنة المؤلف وعلمه . كما لا يعز تصويبه على القارئ الكريم الذى يعرف أين مكان السيد جمال الدين الأفغانى من عصر محمد على ؟ ؟

٧ - بين العطار والخبزى المؤرخ

شاءت الأقدار أن يلتقى ثلاثة من أعلام مصر في عهد الحملة الفرنسية وفي عهد محمد على على صداقة متينة لم تنل منها الأيام ، على الرغم من اختلاف

(١) مجلة المحلة - عدد مارس سنة ٦٥ ص ٣٥ .

(٢) تاريخ الوقائع المصرية : ص ٦٧ - ٦٨ نشر مكتبة الآداب بالقاهرة .

مشاربهم في الحياة . وهؤلاء الثلاثة هم الشاعر إسماعيل الخشاب ، والعالم حسن العطار ، والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي . وسنلتقي في فصل مقبل مع هذا الثالث في مطارحه وفي مطارحاته . . . ولكننا هنا في هذا الفصل سنتحدث عن وجهتي حسن العطار والجبرتي ورأيهما في الحكم وفي الدولة الجديدة التي عهدت إليها الأقدار أن تتولى زمام مصر في أول القرن التاسع عشر ، وهي الدولة التي أقامها محمد علي . وبلغت النظر عند نظرتنا إلى هذين الصديقين المفكرين اختلاف منهجهما في الحياة وخاصة عند قيام حكم محمد علي . فالجبرتي المؤرخ كان مقدراً لذكاء محمد علي ونشاطه ودهائه ومضائه في كل أمره ، وشهامته وتديبه ، ولكنه كان ينقم عليه أموراً منها ظالمة وظلم ولده إبراهيم واستبداده بالأمر ، وطغيان شخصه على الشخصية المصرية .

والجبرتي - في تاريخه العظيم - يقف للدولة العلوية الجديدة بالمرصاد ، يسجل أخطاءها ، ويرصد عيوبها . فلا يخشى مثلاً أن يقول في كتابه عن محمد علي إنه « يمتاز بالدهاء ، والحيلة ، والمداينة » ، بل وصفه مؤرخنا فوق هذا بحلفه الأيمان الكاذبة للنقيب السيد عمر مكرم (على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع ، والإفلاخ عن المظالم . . . فيتورط المخاطب بذلك القول ، ويظن صحته !) والجبرتي المؤرخ كان يرى دولة محمد علي دولة ظالمة ، ويسمى رجالها وأنصارها بالظالمين . . . وكان يرى أن الدين أعانوها على قيامها مشاركون لها في الظلم . . . وذلك كان رأيه في عمر مكرم حين نفاه محمد علي ، (فإن الذي وقع له بعض ما يستحقه ، ومن أعان ظالماً سلط عليه ، ولا يظلم ربك أحدا . . .) والجبرتي يصف ما فعله إبراهيم بن محمد علي بأهل الصعيد من تعذيب قائلاً : (. . . فإنه فعل بهم فعل التتار ، عندما جالوا بالأقطار ، وأذل أعزة أهلها . . .) وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل ، سنه دون العشرين عاماً ، وحضر من بلده ولم ير غير ما هو فيه . . . لم يؤدبه مؤدب ، ولا يعرف شريعة ولا مأمورات ، ولا منهيات . . .) (١) .

ولقد فر العطار من القاهرة حين جاء الفرنسيون إلى مصر ، كما فر الجبرتي المؤرخ إلى مزرعته في بلدة أيار ، وعاد العطار من مفره بالصعيد كما عاد الجبرتي . . . ولكن العطار اتصل بعلماء الحملة اتصالاً قريباً ، على حين كان الجبرتي يباعد نفسه منهم .

وعلى حين نرى هذا النقد اللاذع ، وهذا الغضب المصبوب على محمد على ورجاله من الجبرتي المؤرخ ، نرى الشيخ حسن العطار يمدح محمد على ويغلي في مدحه في مفتتح كتابه (إنشاء عطار) واصفاً إياه بأنه (مدبر الممالك ، مؤمن المسالك ، منور الحواك : زينة الأسرة والأرائك ، قانع البغاة ، مبيد الطغاة . . .) إلى آخر هذه الترائيل المعروفة التي لا يحدها إلا مصانع كاسب لمودات الرجال . . . بل نراه يتجه بالشعر إلى مدح إبراهيم « باشا » عند عودته ظافراً من حروب الشام قائلاً في مطلع القصيدة :

سَمَهْرِيٌّ يَنْشَنِيْ أَمْ غَصْنُ بَانَ ؟ أَمْ قَوَامٌ دُونَهُ صَبْرِيْ بَانَ ؟
صَانَ بِالْعَسَالِ مَعْسُولَ اللَّحْمَى وَتَهَادَى ، هَادِماً مَا أَنَا بَانَ ...
والقصيدة طويلة فارجع إليها في الجزء الرابع من خطط على مبارك .

ولقد عرف العطار طريق الوصول إلى محمد على ، فقد كان له — كما يروى صاحب الخطط — (اتصال خاص يسامى باشا وأخويه باقى بك وخير الله بك ، وله عليهم مشيخة ، وبواسطتهم كان يجتمع على المرحوم محمد على باشا فيجمله ويعظمه ويعرف فضله) . أما الجبرتي فقد كان يتحاشى أبواب أصحاب السلطان ، وخاصة بعد أن أصيب بمصرع ولده خليل نتيجة لغضب سليمان أغا السلحدار أحد الدهاة في بلاط محمد على .

وقد يقال — كما قاله الأستاذ خليل شيبوب — إن ائتلاف الأمزجة ، واتفاق الطبائع هو السبب في توثيق أواصر المحبة بين العطار والجبرتي ، ولكن الذى لا شك فيه أن اختلاف نظريهما إلى معنى الحكم ، وأخلاقية الحاكم قد أدى بهما إلى مذهبين مختلفين ، ووجهتين متباينتين : وإن كانا قد ظلا عمريهما على حب وصفاء ، في حالتي السراء والضراء . . .

٨ - الحَكَم الذى ترضى حكومته

يلفت النظر فى حوادث سنة ١٢٣٦ هـ - سنة ١٨٢٠ م التى ذكرها الجبرقى فى الجزء الرابع من تاريخه ، هذا الحادث الذى ندعه مروياً بعبارة صاحبه حيث يقول : (وفيه من الحوادث أن الشيخ إبراهيم الشهير بباشا المالكي بالإسكندرية قرر فى درس الفقه أن ذبيحة أهل الكتاب فى حكم الميتة لا يجوز أكلها . وما ورد من إطلاق الآية فإنه قبل أن يغيروا ويبدلوا فى كتبهم . فلما سمع فقهاء الثغر ذلك أنكروه واستغربوه . ثم تكلموا مع الشيخ إبراهيم المذكور وعارضوه . فقال : أنا لم أذكر ذلك بفهمى وعلمى ، وإنما تلقيت ذلك عن الشيخ على الميلى المغربى ، وهو رجل عالم متورع موثق بعلمه . ثم إنه أرسل إلى شيخه المذكور بمصر يعلمه بالواقع . فألف رسالة فى خصوص ذلك وأطنب فيها ؛ فذكر أقوال المشايخ والخلافات فى المذاهب . واعتمد قول الإمام الطروشى فى المنع وعدم الحل . وحشا الرسالة بالخط على علماء الوقت وحكامه ، وهى نحو الثلاثة عشر كراسة (كذا) ، وأرسلها إلى الشيخ إبراهيم ، فقرأها على أهل الثغر ، فكثرت اللغط والإنكار ، خصوصاً وأهل الوقت أكثرهم مخالفون لملأه . وانتهى الأمر إلى الباشا ، فكتب مرسوماً إلى كتبخدا بياك بمصر ، وتقديم إليه بأن يجمع مشايخ الوقت لتحقيق المسألة ، وأرسل إليه بالرسالة أيضاً المصنفة . فأحضر كتبخدا بياك المشايخ ، وعرض عليهم الأمر ، فلطف الشيخ محمد العروسى العبارة ، وقال : الشيخ على الميلى رجل من العلماء تلقى عن مشايخنا ومشايخهم ، لا ينكر علمه وفضله ، وهو منعزل عن خلطة الناس . إلا أنه حاد المزاج ، وبعقله بعض خلل ، والأولى أن نجتمع به ونتذاكر فى غير مجلسكم ، ونهى بعد ذلك الأمر إليكم . فاجتمعوا فى ثانى يوم ، وأرسلوا إلى الشيخ على يدعونه للمناظرة ، فأبى عن الحضور ، وأرسل الجواب مع شخصين من مجاورى المغاربة يقولان إنه لا يحضر مع الغوغاء ، بل يكون فى مجلس خاص يتناظر فيه مع الشيخ

محمد بن الأمير . بحضرة الشيخ حسن القويسنى ، والشيخ حسن العطار فقط ، لأن ابن الأمير يناقشه ويشن عليه الغارة ! فلما قالوا ذلك القول تغير ابن الأمير وأرعد وأبرق ، وتشاتم بعض من بالجلس مع الرسل ، وعند ذلك أمروا بحبسهما فى بيت الأغا ، وأمروا الأغا بالذهاب إلى بيت الشيخ على وإحضاره بالجلس ولو قهراً عنه . فركب الأغا وذهب إلى بيت المذكور ، فوجده قد تغيب ، فأخرج زوجته ومن معها من البيت ، وسمر البيت ! فذهبت إلى بيت بعض الجيران ! ثم كتبوا عرضاً محضراً وذكروا فيه بأن الشيخ على على خلاف الحق ، وأبى عن حضور مجلس العلماء والمناظرة معهم فى تحقيق المسألة ، وهرب واختفى لكونه على خلاف الحق ! ولو كان على الحق ما اختفى ولا هرب . والرأى للحضرة الباشا فيه إذا ظهر ، كذلك فى الشيخ إبراهيم باشا السكندرى . وتمموا العرض وأمضوه بالختوم الكثيرة ، وأرسلوه إلى الباشا . وبعد أيام أطلقوا الشخصين من حبس الأغا ، ورفعوا الختم عن بيت الشيخ على ، ورجع أهله إليه . وحضر الباشا - يعنى محمد على - إلى مصر فى أوائل الشهر ، ورسم بنى الشيخ إبراهيم باشا إلى بنى غازى . ولم يظهر الشيخ على من اختفائه . . .)

هذا الخبر الذى رواه الجبرقى يحمل دلالات كثيرة ، وقد يستنبط القارئ منه أشياء متنوعة تتصل بجرية الرأى ، ولغة العوام ، وخصومات العلماء ، وسطوة الحكام ، ورعاية الاعتبار ، وتلطيف الفتن . . . ولكن الذى يهمنى منه هو رضا الشيخ على الميلى المتهم بأن يكون الشيخ حسن العطار أحد الحكمين فى هذه المسألة ، وثانى القاضيين فى مجلس المناظرة ، وأولهما الشيخ حسن القويسنى . فاختيار العالم المتهم لذين الحكمين هو دليل على اطمئنانه إليهما ووثوقه من مناصرتهم للحق ، وعدم ميلهما إلى الهوى . وتلك شهادة من عالم محقق لعالمين يراهما - وهو فى موضع الاتهام - أهلاً للثقة ، وموضعاً للعدالة . وقد اختارهما صاحبنا لينخففا من حدة الشيخ الأمير فى المناقشة ، فكأنهما صمام الأمن الذى به يستطيع أن يناقش خصمه فى هدوء ، ويجادله فى اطمئنان . وقد حدثت هذه الحادثة والشيخ خان حسن العطار وحسن القويسنى ليسا إلا مجرد عالمن من علماء

الأزهر ، ولم يكن واحد منهما قد وصل إلى مشيخة الأزهر بعد . وفي هذا دلالة على المكانة العلمية وعلى الحيدة التي كان يتمتع بها هذان العالمان .

وليس في هذا الاختيار من العالم المهتم دلالة على رأى العطار والقوينى فى الحكم على ذبيحة أهل الكتاب ، وهل هى جائز أكلها أم لا يجوز ؟ فقد يكون رأيهما مخالفاً لرأيه ، ولكنه دلنا على أن حسن العطار وحسن القوينى أهل لأن يطمأن إليهما ، ويوثق بهما . وتلك شهادة تدلنا على مكانة الشيخ حسن العطار فى عصره ، ومنزلته من مخالفه وموافقه على سواء . . .

٩ - قارئ الكتب الواعى

لم يصل حسن العطار إلى تلك الحصيلة الواسعة من المعارف البشرية فى عصره إلا بما حصله من قراءة الكتب . فإن شيوخه وأساتذته فى الأزهر لم يعطوه من المعارف وثراء الفكر قدر ما أعطته الكتب الكثيرة التى قرأها وعلق عليها ، وأعاد قراءتها . فقد كان صاحبنا قارئاً ممتازاً ، وكان للكتب عنده محل عظيم من نفسه . وما عرف عنه أنه ضن على كتاب يقتنيه بمال مهما ارتفع سعره ، على الرغم من عدم تكاثر الأموال بين يديه . وتدلنا أخباره المنبثة هنا وهناك فى تضاعيف مصنفاته على مبلغ عنايته بالكتب التى يسمع بها ، وشدة رغبته فى الحصول عليها . وفى الجزء الثانى من كتابه « جمع الجوامع » يسوقه الحديث إلى كتاب « ترشيح التوشيح » ، فيقول عنه : (وهذا الكتاب من أجل كتب المصنف ، وقعت إلى نسخته وأنا بمدينة دمشق الشام ، ومقدمة ذلك الكتاب بنحطه ، فاشتريتها . . .)^(١)

وما كان العطار ليسافر دون أن يستصحب الأسفار والكتب فى أسفاره ورحلاته . ويذكر لنا فى مقدمة حاشيته على شرح الأزهري للشيخ خالد أنه لما خرج فاراً من مصر إلى البلاد الرومية ، كما سبق الحديث عن ذلك فى صفحة ٢١

استصحب مسودة هذا الكتاب وغيرها من بعض كتبه . ولم يكن العطار يكتفى بقراءة الكتب التي تقع في يده ، بل كثيراً ما كان يطرز هوامشها بتعليقاته وكتاباته . ويؤيد هذه الحقيقة ما ذكره عنه الشاعر الشيخ محمد شهاب الدين ، ونقله عنه على مبارك من أن الشيخ حسن العطار (كان آية في حدة النظر وشدة الذكاء . ولقد كان يزورنا في بعض الأحيان ، فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذي تعسر قراءته في وضوح النهار ، فيقرأ فيه على نور السراج وهو في موضعه . وربما استعار مني الكتاب في مجلدين : فلا يلبث عنده إلا الأسبوع أو الأسبوعين ، ويعيده إليّ ، وقد استوفى قراءته ، وكتب في طرره على كثير من مواضعه)^(١) . فهو لا يبالي أن يعلق على هوامش الكتاب وطرره حتى ولو كان مستعاراً وليس في ملك يده . ويقرر لنا هذا الخبر سرعة حسن العطار في القراءة مع الاستيعاب والفهم . فالكتاب الضخم في مجلدين لا يأخذ منه أكثر من أسبوعين لقراءته واستيفاء موضوعاته والتعليق على هوامشه .

وتدلنا الرسالة التي بعث بها حسن العطار إلى الشيخ مصطفى بكرى الساعاتي^(٢) من أدباء وقته على مبلغ اتساع دائرة قراءة الرجل وكثرة محفوظه من كتب الأدب والتاريخ والأخبار والمحاضرات وما إليها ، ففيها إشارات إلى أخبار أدبية طريفة تدل على أن الرجل كان مطلعاً على كثير من كتب الأدب والتاريخ والشعر .

ولم يكتف العطار بالكتب العربية ، بل اتجه إلى الكتب التي ترجمت في أوائل عصر النهضة في القرن التاسع عشر ، فقرأها ، وأفاد منها ، وجمع بها بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب . ويشهد له تلميذه الشيخ رفاعة الطهطاوى بهذا فيقول عنه : (وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها)^(٣) . بل يتحدث العطار نفسه عن قراءته واطلاعاته على الكتب فيقول : (وقع في زمننا

(١) الخطط التوثيقية - ج ٤ ، ومعجم المطبوعات العربية لسركيس ص ١٣٣٦ .

(٢) مجلة روضة المدارس عدد ١٨ سنة ١٢٨٧ هـ ص ٢٥ ، وعدد ١٩ ص ٢٤ .

(٣) مباحج الألباب المصرية لرفاعة الطهطاوى .

أن جلبت كتب من بلاد الإفرنج ، وترجمت باللغة التركية والعربية ، وفيها أعمال كثيرة ، وأفعال دقيقة ، اطلعنا على بعضها . وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة إلى الفعل (١) .

ويفسر لنا نهم العطار بالقراءة وتحصيل المعارف كلفه بالمعرفة وحبه الأصل للعلم . ويؤكد لنا الأستاذ سامى بدرأوى (أن مفتاح شخصية العطار يكمن في هذا الحب للعلم) ، كما يقرر (أن كلفه بالمعرفة والتعلم هو الذى جعله فذاً بين أقرانه تلميذاً وأستاذاً ، وهو الذى صاحبه في كافة مراحل حياته ، وجعله حدثاً في عصره) (٢) . والحق أن الشيخ حسن العطار كان حدثاً في عصره ، وكان ظاهرة قليلة النظير ، بل نادرة المثل .

١٠ - ثنائى مرح . . . وثلاثى متلازم . . .

تصادفنا في سيرة الشيخ حسن العطار شخصيتان كبيرتان ربط الود بينهما وبينه بأوثق رباط ، وهما شخصية عبد الرحمن الجبْرِقي المؤرخ ، وإسماعيل الخشاب الشاعر الخفيف الروح . ويروى لنا الجبْرِقي في حوادث سنة ١٢٣٠هـ - سنة ١٨١٥ م نبأ وفاة الشاعر الخشاب ، ويحدثنا عن هذه الصلة قائلاً : (وبعد أن رجع صاحبنا العلامة الشيخ حسن العطار من سياحته ، مازج المذكور - يعنى الشاعر الخشاب - ونخالته . ورافقه ووافقه ولازمه ، فكانا كثيراً ما يبيتان معاً ، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر ، وألطف من اتساق نظم الدرر . وكثيراً ما كانا يتنادمان بدارى ، لما بينى وبينهما من الصلابة الأكيدة ، والمودة العتيدة ، فكانا يرتاحان عندي ، ويطرحان التكاليف التى هى على النفس شديدة ، ويتمثلان بقول من قال :

(١) جمع الجوامع لحسن العطار جزء ٢ ص ٦٤١ .

(٢) مجلة المجلة عدد مارس سنة ١٩٦٥ . ص ٣٢ .

فِي انقباض ووحشة فإذا رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتهما وقلت ما قلت غير محتشم !

ثم يتجاذبان أطراف الكلام ، فيجولان في كل من فن من الفنون الأدبية ،
والتواريخ والمحاضرات ، فتارة يتشاكيان تغير الزمان ، وتكدر الإخوان ، وأخرى
يتربحان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صد وهجران ، ووصل وإحسان !
فكانت تجري بينهما مناديات أرق من زهر الرياض ، وأفنك بالعقول من الحدق
المراض ، وهما حينئذ فريدا وقتهما ، ووحيدا مصرهما ، لم يعززا في ذلك الوقت
بثالث ، إذ ليس ثم من يدانیهما فضلاً عن مساواتهما في تلك الشئون التي أربت
على المثاني والمثالث ! (١)

ولا نجد كلاماً أصدق في وصف صحبة هذا الثالوث من كلام الجبرتي المؤرخ
ولا أدق منه وألطف ! والواقع أن الجبرتي يتواضع هنا حين يذكر عن العطار
والخشب الشاعر أنهما لم يعززا بثالث في زمانهما ؛ فقد كان الجبرتي نفسه ثالث
هذه الجماعة المتلاقية على الحب والوفاء والألفة والسمو والأدب . وتدلنا شهادة
مؤرخنا الجبرتي لحسن العطار على روح هذا العالم الأديب الذي كان يذوب رقة
ولطفاً ، والذي كان يجارى الشاعر الخشب في غزلياته ومعايشاته ، ومفاكهاته ،
بل في مجونياته ! وقد أسقط الثلاثة الكلفة بينهم في مجاسم الخاص هذا ، وفي
أسماهم ومنادياتهم ومطارحاتهم .

والواقع أن الشاعر إسماعيل الخشب كان أكثر الثلاثة ظرفاً ، وأميلهم إلى
الدعابة في انطلاق كثير . . . وكان فيه براعة في اجتذاب قلوب مجالسيه
ومحدثيه ، حتى لقد كان أمراء مصر وبكواتها وتجارها وعلمائها يرتاحون لمناديمته ،
ويتنقلون على طيب مفاكهته ، وحسن مخاطبته ، ولطف عبارته . وكان فيه كذلك
قدرة عجيبة على استحضار المناسبة اللائقة بالجلوس ، وعلى مخاطبة الحضور
على قدر عقولهم ، فيجانبس الناس ويشا كلهم على قدر اختلاف أهوائهم . . .

ولقد بلغ من وفاء الشيخ حسن العطار لصديقه إسماعيل الخشاب الشاعر أنه هو الذى جمع شعره وأظهر ديوانه ، كما تشير إلى ذلك عبارة فى الصفحة الثانية من الديوان المطبوع بالجواثب^(١) ، وكما يذكر الجبرقى فى ترجمته للخشاب . وكثيراً ما كان هؤلاء الثلاثة يتنادون إلى الرياض ، ويتداعون إلى المتنزهات استجلاً للأنس ، واطراحاً للهم . فرى الخشاب الشاعر يدعو الجبرقى المؤرخ إلى متنزه ، قائلاً : -

يا سيدى يا سمدى ويا عريق المحتد
ويا أخا منظره جلاء العين الأرمد
أدعوك تأنى مسرعاً وبإلذالك من يد ؟
نؤم قصرًا جامعاً كل المعانى البشرد
نصغى إلى مزهر من أضحى فريد البلد !

وكثيراً ما كانت تقوم المعارضات الشعرية بين أعضاء هذا الثلاث الطريف . فحين نظم حسن العطار موشحته التى يقول فيها على طريقة الأندلسيين :

أما فؤادى فعنك ما انتقلا فلم تخيرت فى الهوى بدلاً ؟ فاعجب
يا معرضاً عن محبه الذنوب ومغرماً بالجمال والصلف
ومن به زاد فى الهوى شغفى أما كفى يا ظلوم ما حصلاً ؟
حتى جعلت الصدود والملا مذهب !

فتش فؤادى فليس فيه سوى شخصك يأيها المليح ثوى
قد ضل قلبى لسكنه ، وغوى وهكذا من يحب معتدلاً
لم يلق إلا تأسفاً وقل مشرب ...

(١) ديوان الخشاب : طبع الجواثب ص ٢ من الديوان أو ٣٤٥ من المجموع الذى طبعه فارس الشدياق مشتملاً على دواوين أخرى لابن الوردي وغيره .

حين نظم العطار هذه الموشحة التي منها هذه الأبيات عارضه الشاعر الخشاب بموشحة مطلعها :

يهتز كالغصن ماس معتدلاً أطلع بدرأً عليه قد سدلاً غيب
ولا شك أن العطار كان له شعر كثير في الغزل ، كما كان له ديوان — كما يذكر الجبرتي^(١) . ولا نعلم الآن مصير هذا الديوان المخطوط وأين مكان وجوده ، ولكننا نعلم يقيناً أن حسن العطار ذكر في رسالته إلى الشيخ مصطفى بكرى الساعاتي أنه ضاع منه بدمشق كراس من ديوان شعره^(٢) . ولعله — على جلال قدره في العلم — تخرج من شعر غزله وشبابه فزعم أنه ضاع منه كراس في دمشق .

ولقد كان الجبرتي المؤرخ أكثر الثلاثة جدّاً ، ولكن العطار لم ير في مجالس الأدب والظرف والمنادمة من خرج ما دام الدين متبوعاً ، وعلم الشريعة مصوناً . أما الخشاب فكان أكثر الثلاثة ميلاً إلى الإسراف في المضاحكات والمطارحات واصطياد اللذات .

ولما مات الخشاب الشاعر لم يجد حسن العطار في الجبرتي من يسد مسده ، ويملاً فراغه ، فبقى — كما يقول مؤرخنا — فريداً عمن يشاكله ويناشده ويتجارى معه ، فسكت عن الشعر والنثر الأدبي جملة ، وانقطع عن مجالس السمر والمنادمة ، وانصرف إلى تقرير العلوم الفقهية والنحو ، والتصنيف في مقررات الأزهر ما بين حواشٍ وشروح ومتون . . .

١١ - وصاف الأوبئة

لقد كانت مصر ، بل كان الشرق العربي كله ، في العصر الذي شهد مولد حسن العطار مباءة لكثير من الأوبئة ومنها الطاعون ، الذي لفت أنظار

(١) تاريخ الجبرتي : طبعة بولاق ج ٤ ص ٢٤١ .

(٢) روضة المدارس عدد ١٨ ص ٢٨ .

الرحالين الأجانب فتحدثوا عنه في رحلاتهم ، والذي كان يحصد الأرواح حصداً . وكان وباء الطاعون يتكرر حدوثه كل بضع سنوات كما لاحظ ذلك الرحالة قولني . ولقد شهد حسن العطار في حياته الطويأة بضعة من الطواعين ، أولها الطاعون الذي حدث سنة ١٢٠٥ هـ - ١٧٩١ م . وأشار إليه الجبرتي في خلال ترجمته للشيخ محمد مرتضى الزبيدي صاحب « تاج العروس » ، وقد مات الزبيدي مطعوناً في ذلك الوباء . وثانيها الطاعون الذي حدث سنة ١٢٠٦ هـ - ١٧٩٢ سنة ١٧٩٢ وقد أشار إليه مؤرخنا في خلال ترجمته للشيخ محمد الصبان النحوي المشهور . أما ثالث الطواعين التي شاهدها العطار فهو الذي حدث في عهد الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠ ، وقد وقع بمصر والشام ، وكان أسوأ نتائجها وأشد فتكاته بالصعيد . وينقل لنا الجبرتي المؤرخ وصفاً لهذا الوباء من رسالة بعث بها حسن العطار إليه من الصعيد حينما كان فاراً من وجه الفرنسيين في القاهرة . ولم يكتف الجبرتي بنقل هذه الرسالة الوصفية في تاريخه المشهور ، بل نقلها كذلك في كتابه الآخر « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » الذي ألفه بالمشاركة مع حسن العطار . وتصف لنا رسالة العطار هجوم البلاء ، وإغلاق الأسواق ، وندرة الأكفان ، وكثرة الموتان ، وعدم وجود المغسلين والمكفنين وحاملي النعوش . . . وانشغال الناس بتجهيز الموتى ، وتردد صيحات النائحين والباكين ، وتعطل بيوت الله من الأذان والمؤذنين ، وجفاف الضروع ، وتعطل الزروع ، وهبوب حصيد النبات بفعل الرياح لفقدان الحاصدين . . . ولا بأس هنا أن نذكر هذه الرسالة المؤثرة حيث قال مخاطباً صديقه الجبرتي : (ونعزفكم يا سيدي^(١) أنه وقع في قطر الصعيد طاعون لم يعهد ولم نسمع بمثله ، وخصوصاً ما وقع منه بأسيوط . وقد انتشر هذا البلاء في جميع البلاد شرقاً وغرباً ، وشاهدنا منه العجائب في أطواره وأحواله . وذلك أنه أباد معظم أهل البلاد . وكان أكثره في الرجال ، سيما الشبان والعظماء وكل ذي منقبة وفضيلة ، وأغلقت الأسواق ، وعزت الأكفان : وصار المعظم من الناس بين ميت ومشيّع ومريض وعائد !

حتى إن الإنسان لا يدري بموت صاحبه أو قربه إلا بعد أيام . ويتعطل الميت في بيته من أجل تجهيزه ، فلا يوجد النعش ولا المغسل ، ولا من يحمل الميت إلا بعد المشقة الشديدة ، وأن أكبر كبير إذا مات لا يكاد يمشى معه — أى يسير في جنازته — ما زاد على عشرة أنفار تكثرى ! وماتت العلماء والقراء والمثزمون والرؤساء وأرباب الحرف . ولقد مكثت شهراً بدون حاق رأسى لعدم الخلاق ! وكان مبدأ هذا الأمر من شعبان ، وأخذ في الزيادة في شهرى ذى القعدة والحجة ، حتى بلغ النهاية القصوى ، فكان يموت كل يوم من أسويط خاصة زيادة على السمائة . وصار الإنسان إذا خرج من بيته لا يرى إلا جنازة أو مريضاً أو مشغلاً بتجهيز ميت ! ولا يسمع إلا نائحة أو باكية ! وتعطلت المساجد من الأذان والإمامة ، لموت أرباب الوظائف ، واشتغال من يقى منهم بالمشى أمام الجنائز والسبح والسر . وتعطل الزرع من الحصاد ، ونشف على وجه الأرض ، وأبادته الرياح لعدم وجدان من يحصده . وعلى التخمين أنه مات الثلاثان من الناس ، هذا مع سعى العرب في البلاد بالفساد والتخويف ، بسبب خلو البلاد من الناس والحكام . . . إلى أن قال : ولو شئت أن أشرح لك يا سيدى ما حصل من أمر الطاعون لمأت الصحف . . .) ولقد لقي الفرنسيون من العنت في مكافحة هذا الوباء — وخاصة بالقاهرة حيث جموع جيشهم ورجال حملتهم — ما لم يغفله مؤرخو عهد الحملة ، وخاصة الشيخ عبد الرحمن الجبرى . كما كانوا يستعدون منذ خطوا رحلهم بمصر لمنع انتشار الأوبئة واتخذوا من وسائل الحيلة ما يذكره مؤرخنا في حوادث سنة ١٢١٣ هـ . ولقد أصدروا الأوامر والمنشورات مراراً (بعدم المخالطة مع النساء المشهورات ، لأنهن الواسطة الأولى لتشويش الطاعون . . .)^(١) فلما بدأ ظهور الوباء سنة ١٨٠٠ (انزعج الفرنسيون من ذلك ، وجردوا مجالسهم من الفرش ، وكنسوها وغسلوها ، وشرعوا في عمل كرتنيلات — أى حجر صقى — ومحافظات . . .)^(٢) ثم زادوا في وسائل المكافحة

(١) تاريخ الجبرى — طبعة اللجنة ج ٥ ص ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٨ .

فأمروا بحرق الثياب التي على أجساد الموتى من الوباء ، وحصل بذلك للناس انزعاج عظيم . ومن غرائب الاتفاق أن مراد بك المملوك المصرى فى عهد الحملة قد مات بالوجه القبلى على أثر إصابته بالطاعون . على أن عين الوباء لم تغفل عن الفرنسيين المعتدين ، فقد روى الخبرنى أنه كان يموت كل يوم من الفرنسيين المقيمين بالقلعة الثلاثون والأربعون^(١) . ولم يدع مؤرخنا الفرصة تمر دون أن يصور لنا بقلمه الرشيق طريقة دفن الفرنسيين لموتاهم من الوباء^(٢) .

ولقد وصف لنا حسن العطار الطاعون الرابع الذى حدث فى مدة حياته سنة ١٨٢٣ م ، وذلك فى نهاية باب التصورات من حاشيته المشهورة على شرح الخبىصى فى علم المنطق . وعهدنا بالعطار أنه يستطرد بذكر حوادث فى خلال موضوعات كتبه ومسائل مصنفاته . وهنا نراه يشير إلى ثلاث حوادث هائلة حدثت بمصر فى سنة ١٨٢٣ ، وهى المطر الشديد الذى هدم مواضع كثيرة وعطل الناس عن قضاء مصالحهم ، والحريق الذى حدث بمخازن البارود فى القلعة ، وأهلك خلقاً كثيراً ، وحيوانات وأمتعة ، وارتجت منه البلاد رجتين نتيجة لانفجار البارود . والطاعون الذى وصفه قائلاً^(٣) : (ثم جاء الطاعون ومات من أهل العلم جماعة ، ومرض البعض ، والبعض فر إلى بلاده ، وصار من بقى ما بين عائد مريض ومشييع جنازة ومشغول بخدمة من مرض عنده . والأفكار تكدرت ، والهجوم تكاثرت ، والأوهام غلبت . وكان معنا فى ابتداء إقراء الكتاب — يعنى حاشيته فى المنطق — جماعة كثيرة من أذكىاء الطلاب ، قلوا جداً ، وصارت أفكارهم لذلك الحادث غير قابلة للبحث فى غوامض المسائل المحتاجة لصفاء الفكر ، وعدم شغل البال ، وفكرى أنا أيضاً كذلك ، لمرض عيالى ، وخوفى على أحبائى ، وحزنى على من مات منهم ، وإشفاقى على المتمرضين . أسأل الله سبحانه اللطف لى ولهم وللمسلمين . . .) .

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

(٣) حاشية العطار على شرح الخبىصى ص ١٣٨ .

وإذا كان العطار في طاعون عهد الحملة قد وصف لنا الآثار المادية للوباء ،
وصورها لنا في البيت والشارع والحقل ، والمقابر والحنازات والأسواق ، فإنه في
طاعون سنة ١٨٢٣ قد صور لنا الحالة النفسية له ولطلابه . من أثر التمرض
والتمريض والخوف والقلق والحزن على الموتى والإشفاق على المتضررين . . .

ويعد حسن العطار بوصفه لطاعون سنة ١٨٢٣ م المؤرخ الوحيد له ، فلم تشر
إليه تقارير العلماء والمؤرخين الأجانب المعاصرين لمحمد علي من أمثال البارون دي
بوالكميت ، وهود جسون ، ودوهاميل ، وبورنج^(١) . كما لم يشر إليه اللواء
محمد مختار « باشا » صاحب « التوفيقات الإلهامية » في حوادث سنة ١٨٢٣ ،
بل اكتفى بالإشارة « للحريقة المهولة بالقلعة بمصر » فقد كانت « لشدتها وشهرتها
تؤرخ بها العامة مواليدهم^(٢) ووفياتهم^(٣) . . . »

على أن العطار لم ينفرد وحده في الأدب العربي بوصف الطاعون والوباء ،
فقد سبقه إلى ذلك الشاعر الأديب عمر بن الوردى الذى ولد بالمعرة وتوفى بحلب
سنة ٧٤٩ هـ ، فله رسالة في وصف طاعون حدث في عهده أسماها « رسالة النبا ،
عن الوبا » ، وقد حلاها بالمحسنات البديعية المزدحمة على طريقته في الكتابة ،
ولكنه أبدع في وصف الوباء وطريقة انتشاره ، وكثرة ضحاياه^(٤) .

وإذا كان الله ينعم بالبلاء أحياناً ، فإن هذا القول ينطبق على طاعون عهد
الحملة الفرنسية في مدينة عكا ، فقد كان حدوث الطاعون بها من الأسباب
التي حملت بونابرت على ترك محاصرتها . فقد كان يموت كل يوم من رجال
عسكره خمسون وستون عسكرياً . ولا نستنتج نحن ذلك ، ولكننا نأخذ من كلام
بونابرت نفسه الذى بعث به من عكا إلى الفرنسيين المقيمين بمصر . . .

(١) بناء دولة : للدكتور محمد فؤاد شكرى وزميله ص ٥٩١ .

(٢) التوفيقات الإلهامية ص ٦٢٠ .

(٣) ديوان عمر بن الوردى - طبع الجوانب - ص ١٨٤ .

١.٢ - العطار بين مادحيه وراثيه

يظهر تقدير الناس للمرء وهو حي بين ظهرائهم بمدحهم له وثنائهم عليه . فإن ألسنة الخلق أقلام الحق كما يقولون . ويظهر تقديرهم له بعد وفاته برثائه والتفجع عليه والتعداد لمحاسنه وآثره . ولئن نجد تقدير الرجال في الأدب العربي إلا بين هذين . ولقد كان الشعراء في عهد العطار قلة غير مجودة ، ولهذا لم نظفر عندهم بمدائح كثيرة له . وقد يكون مدحه جماعة من النظامين لم تصل إلينا قصائدهم لاعتبارات ، منها أن نظمهم لم يطبع ، وأن دواوينهم لم تنشر . ولقد أشرنا في باب سابق من هذا الكتاب إلى الصلة بين العطار والشاعر بطرس كرامة اللبثاني ومدح هذا له ببعض الشعر الذي نشره في ديوانه « سجع الحمامة » . على أن هناك من تلاميذ العطار نبغ شاعر مشهور في عصره هو محمد شهاب الدين الذي حاول أن يكون الشاعر الرسمي للدولة في عهده ونجح في هذا . وقد ظل هذا الشاعر الأديب وفيماً لشيخه مدى حياته ، وعبر عن هذا الوفاء بمدحتين نشرنا في ديوانه المطبوع سنة ١٢٧٧ هـ . ومدحة شهاب الدين الأولى للعطار ميمية القافية ، وقد جرى فيها على طريقته التقليدية في الشعر ، وافتتحها بالغزل محاكاة للقدماء ، وتخلص من أبيات الغزل الطويل إلى صفة الممدوح قائلاً :

قلت يا ذا العذول دعني وجهلى	حسبك البر بحر فيض العلوم
مركز الفضل من غدا كل قطر	مستمدا من خطه المستقيم
شيخ كل الشيوخ مولى الموالى	صفوة الأصفياء ، مزيل الهموم
«حسن» الذات والصفات جميعاً	مغضب المبغضين ، مرضى الخصوم
هو «عطارنا» الذى من شذاه	كان عطر الهدى ذكى الشميم !

ولاحظ هنا الصناعة اللفظية والحليات البديعية ومصطلحات العلوم والبديع في قوله : البر ، والبحر ، والفيض . وقوله : مركز ، وقطر . وخط مستقيم وهى

مصطلحات الهندسة ، والمناسبة بين عطار ، وشذا التي هي فوح العطور . . .
أما مدحة الشهاب الثانية للعطار فقد نظمها حين تعصب عليه بعض
الشيوخ لمسألة لم يذكرها لنا الشاعر الذي أطال في القصيدة ، وافتتحها أيضاً
بالغزل وخلص إلى مدح العطار قائلاً :

هو في سماء العلم بدر كامل ما إن يصاب تمامه بسرار
هو في المعارف صاحب الحال الذي يمتاز عند تنكر الأخبار
هو في الزمان السعد والعز الذي تعتز مصر به على الأمصار
ولاحظ هنا أيضاً مصطلحات النحو في قوله: المعارف، وصاحب الحال ،
وتنكر ، وأخبار . . .

وهناك شاعر مصرى مشهور في عصره اسمه على الدرويش ، وقد أدرك
العطار ومدحه حينما كان شيخاً للجامع الأزهر بقصيدة رائية مثبتة في ديوانه^(١) ،
وقد جرى الناظم المادح هنا على طريقة أهل عصره في الافتتاح بالغزل والتخلص
إلى المدح ، وملاً مدحته بالمحسنات البديعية والصنعة المتكلفة ، وخلص إلى مدح
ممدوحه قائلاً :

ورأى الأقاحي عطر ثغرك فانشنى متعجباً يشنى على «العطار»
يزهو على الأعصار عجباً عصره وتتيه مصر به على الأمصار

ولاحظ الشطر الأخير هنا فهو يكاد يكون بألفاظه الشطر الأخير من أبيات
الشاعر شهاب الدين . على أن العطار الذي أقل الشعراء المادحون في مدحه هو
العطار الذي أقل الشعراء الراثون في رثائه . حتى القصيدة الطويلة التي رثاه بها
تلميذه الشاعر شهاب الدين ضاعت من ناظمها ! فأثبت في ديوانه ستة أبيات
فقط ممهداً لها بالعبارة التالية : (وكنت قد رثيت العلامة الشيخ العطار — قدس

سره—بقصيدة ضاعت مسودتها ، وليس في مخيلتي سوى أبيات قليلة مطلعها قولى :

سله أمنا فهو معطى الأمان رب أمر حال دون الأماني
بينما الإنسان يرجو بعيداً إذ تدانى منه داعى التدانى
لم تزل آمالنا فى ازدياد مع أن العمر فى نقصان
والمنايا حكها فى البرايا بالبلايا دائم الجريان
يا خليلي خلني وشجونى إن ما بي من شجون كفى !
كل شئ هالك جل ربي فتدبر من عليها فاني^(١)

على أن العطار — رحمه الله — أسعد حظاً فى الرثاء من غيره من العلماء
الأعلام الذين ماتوا ولم يرهم أحد . فقد ملت قبله بقليل العلامة المشهور السيد
محمد مرتضى الزبيدى شارح القاموس المحيط (فلم يرته أحد من الشعراء)
كما يروى لنا الجبرقى فى تاريخه . . .

١٣ — العطار فى تقدير الرجال

لقد تناول كثير من مؤرخى الأدب وكتاب السير الشيخ حسن العطار
بالحديث عنه أو الترجمة له أو التعريف به . وجاء الحديث عنه إما أصلاً فى
صلب بحث أو مقال ، وإما عرضاً فى خلال كتاب . ولم يظهر عن العطار
منذ انتقل إلى جوار ربه دراسة قائمة بذاتها فى كتاب مستقل خاص به . وبهذا
كان كتابنا هذا أول كتاب مستقل يظهر فى المكتبة العربية عن الشيخ حسن
العطار .

ومن الكتاب والباحثين الذين كتبوا عن العطار من اكتفوا بعرض طرف من
سيرته ، أو نتف من أخباره دون إبداء رأى فيه ، أو تقدير له ولمكانته فى النهضة

الحديثة التي بدأت في القرن التاسع عشر . ومنهم من أضاف إلى الأخبار عنه رأياً فيه وتقويماً له . وسنعرض في هذا الفصل آراء الكتاب في الرجل منذ عصره حتى زماننا هذا . وأول من يصادفنا هنا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي صديق العطار ورفيقه ، فقد قال في معرض ترجمته للشيخ محمد عرفة الدسوقي : (وقد رثاه أمثل من عنه أخذ ، وأكمل من له تتلمذ ، صاحبنا العلامة ، وصديقنا الفهامة ، المنفرد الآن بالعلوم الحكمية ، والمشار إليه في العلوم الأدبية ، صاحب الإنشاء البديع ، والنظم الذى هو كزهر الربيع ، الشيخ حسن العطار)^(١) . ويقول عنه أحد تلاميذه الأديب المصرى مصطفى بكرى الساعاى : (. . . العالم المفرد ، والعلم الأوحده ، رب الشعر والقريض ، والفنون التى هى كالروض الأريض ، ذو التأليف الشائقة ، والتحقيقات الفائقة ، أوحده الفضلاء . . . المتفنن فى علوم لا يعرفها إلا أفراد قليلة ، الحائز قصب السبق فى مضمار كل فضايلة ، شيخنا بل وشيخ كل من نظم ونثر ، وقرأ العلوم وحرر ، أبو السعادات حسن ابن محمد الشهير بالعطار)^(٢) . ويقول عنه تلميذه رفاة الطهطاوى : (كان له مشاركة فى كثير من العلوم ، حتى فى العلوم الجغرافية . . . وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية)^(٣) . ويقول عنه على مبارك : (إنه اشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها) . أما مؤرخ الرجال للقرن الثالث عشر : الشيخ عبد الرزاق البيطار ، فيقول عنه : (ولقد انفراد فى علم الأدب ، وأجاد فيما نظم ونثر ، وأحاطت به الفنون إحاطة الحالة بالقمر . . .)^(٤) . ويقول عنه مؤرخ الصحافة العربية فيليب طرازى : (وقد خلف عدة تأليف فى الأصول والنحو والبيان والمنطق والطب . . . وكان هذا الشيخ عالماً بالفلكيات ، وله فى ذلك رسائل فى كيفية العمل بالأسطرلاب والربعين المقنطر والمحجب والبسائط . وكان يحسن عمل المزاويل الليلية

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٣٢ .

(٢) روضة المدارس - العدد ١٨ ص ٢٧ .

(٣) مباحث الألباب المصرية ص ٣٧٥ .

(٤) حلية البشر - ج ١ ص ٤٨٩ .

والنهارية ، وقد اشتهر أيضاً الشيخ العطار بفنون الأدب والشعر . . (١) . ويقول عنه الدكتور طه حسين وزملاؤه في تأليف « المنتخب » : (. . وكان مع علمه كاتباً شاعراً بليغاً) (٢) . أما الأستاذ محب الدين الخطيب فيصفه بقوله : (وكان متضلعا في العلوم الرياضية ، فضلاً عن العلوم الشرعية والعربية) (٣) . ويتحدث عنه مؤرخنا عبد الرحمن الرافعي في معرض ترجمته للشيخ رفاة فيقول : (وكان الشيخ حسن العطار من علماء مصر الأعلام ، وامتاز بالتضلع في الأدب وفنونه والتقدم في العلوم العصرية : وكان هذا نادراً بين علماء الأزهر) (٤) . ويصفه أستاذاً للشيخ أحمد الإسكندري وزملاؤه في تأليف « المفصل » بقولهم : (هو العالم الكاتب الشاعر ، أكب على كتب الأدب فأصاب منها حظاً عظيماً ، وأجاد الشعر والنثر كليهما) (٥) . ويصور الأديب خليل شيبوب تطلعات العطار واتساع آفاقه بقوله : (وقد جاب الأقطار الشرقية ، وعاد إلى مصر وفي عينيه آفاق جديدة ، وفي فؤاده صور وعبر . فهو يحدث عن دمشق والقسطنطينية ، والجبال والصحراء ، والأودية والبحار ، ولكن نفسه لم تكن مستريحة إلى حال الحمول التي رأى عليها الشرق وأهله وخنوعهم إلى الحكام المستبدين ، وانصراف العلماء إلى المنفعة والمصلحة) (٦) ويصفه الدكتور عبد الحميد يونس بقوله : (وكان رجلاً شاعراً ناثراً مستنيراً اشتهر بغزارة علمه . . .) (٧) ، وينتقد الأستاذ عمر الدسوقي تكلفه وتعمره للسجع في نثره ، ولكنه يحمل تقويمه بقوله : (على أن الشيخ العطار — مع هذا — من أحسن كتاب عصره وشعرائه ديباجة ، وأقلهم تكلفاً) (٨) . ويشيد المرحوم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ١ . ص ١٢٩ .

(٢) المنتخب — لطه حسين وزملائه ج ٢ ص ٤٧٩ .

(٣) كتاب : الأزهر — لمحب الدين الخطيب — ص ٣٧ .

(٤) عصر محمد علي ص ٤٧٢ .

(٥) المفصل لأحمد الإسكندري ورفاقه ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٦) عبد الرحمن الجبرقي — سلسلة أقرأ — تحليل شيبوب ص ١٠٧ .

(٧) الأزهر — لعبد الحميد يونس وعثمان توفيق — ص ١٣٢ .

(٨) في الأدب الحديث — لعمر الدسوقي — ١ - ص ٤٨ .

بموقف العطار من الدعوة إلى العلوم العصرية فيقول : (ولا شك أن موقف الشيخ حسن العطار من العلوم الرياضية بشكلها الجديد يدل على ما كان يمتاز به من مرونة عقلية ودينية ، وعلى أنه كان في هذا أحسن حالاً من أهل الأزهر الذين حاربوها بعده باسم الدين . . .)^(١) ولكنه ينتقد موقف العطار الضعيف وصوته الخافت الذي لم يستطع الجهر به ، بل كان يرسله في مواضع مخبوءة من أحد كتبه في الفقه . أما الدكتور حسين فوزي النجار فيقدره بقوله : (وكان العطار جواب آفاق ، محباً للأسفار . فساح في البلاد العربية ، وأقام في بعضها زمناً ، وارتحل إلى تركيا ولبث بها حيناً ، فأفاده الترحال قدرة على التأمل ، كما أفاده اتصاله بعلماء الحملة الفرنسية معرفة بسر نهضتهم وقوتهم . . .)^(٢) . ويلخص لنا الأديب الباحث سامي بدرأوى رأيه في العطار بقوله : (والخلاصة أن الشيخ حسن العطار كان له موقف متكامل من مشكلات مجتمعه الثقافية والتعليمية والأدبية والسياسية . وقد حاول أن يشخص هذا الواقع ويحدد جوانب الضعف فيه ، كما نادى بضرورة تغييره ورسم برنامج هذا التغيير . وأخيراً أنه عهد بأمانة هذا التغيير ومستقبله إلى تلاميذه الذين يعتبر رفاعة رافع الطهطاوى نموذجهم الفذ الذي بلغت حركة العطار على يديه أوجهاً)^(٣) . ويوجز لنا المستشرق كراتشكوفسكى تقديره للعطار بقوله : (ولم يكن الشيخ حسن العطار عالماً فحسب ، بل وشاعراً أيضاً . . .)^(٤) . ويحمل لنا المستشرق فولرز رأيه في العطار في الفصل الذي كتبه في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الأزهر ، فيقول : (وكان العطار رجلاً مستنيراً ، اشتهر بعلمه ، وكان أيضاً شاعراً ناثراً)^(٥) . هذا هو حسن العطار في تقدير جماعة من المؤرخين والعلماء والأدباء من

(١) تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٢١ .

(٢) رفاعة الطهطاوى - سلسلة أعلام العرب - ص ٦٣ .

(٣) مجلة المجلة - عدد مارس سنة ٦٥ ص ٦٥ .

(٤) حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى - ص ٢٦ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية - المجلد الثانى - مادة أزهر ، ص ٦٥ .

أهل عصره ، ومن أهل زماننا . وسيمتد تقدير الرجل على مدى الزمان ، لأن
تنبيهه وتنبيهه إلى قيمة العلوم العصرية ، وإلى البعد عن الجحود قد آتى ثمرته ،
وخاصة على يد تلميذه رفاعة الطهطاوى الذى كان رائد النهضة فى العصر الحديث .